حديث الشهر

مع مؤلف قصة قرية ظالمة
الدكتور محمد كامل حسين

حاوره ، يقدمه : محمد عبد الحليم عبد الله

انه « عاطفة العلم » ...

من الممكن أن يكون هذا هو اصدق وصف يطلق على الدكتور كامل حسين .

نعم ... « عاطفة العلم » !!...

وكنت أردد هذا بيني وبين نفسي وأنا اجتاز باب عيادته للمرة الأولى حيث كنا على موعد لنتحدث في (الأدب) .

وكان ميعاد الذين يطلبون (العلم) لم يحل بعد ... ميعاد مقابلته لمرضاه . ورأيت الدكتور كامل حسين في عيادته كما رأيته في أي مكان آخر ... وجه هادىء ونظرة متطلعة الى فوق . ومع ملامح الوداعة ترى وقارا لا يمت الى التزمت ولكنه الثمرة الطبيعية للحياة الجادة .

ربما حياك باختصار أو رد على سؤالك باختصار ... وربما يحس شخص ما تبعا لذلك أن هذا الكاتب ينتمي ـ في كل ما يصدر عنه ـ الى (الحقيقة العلمية) قبل أن ينتمي الى (الهزة الوجدانية) ...

لكنك حين تجلس اليه وتحدثه فانك لا تلبث أن ترى أمام عينيك ميزانا بكفتين تتارجحان في شبه تعادل ... في احداهما (حد الحقيقة) وفي الأخرى (رقة الخيال) . وعندئذ لا يسعك الا أن تأخذ من كل ناحيه صفة فتطلق على العالم الأديب ، ذلك الوصف (عاطفة العلم) الذي حدثت به نفسي وأنا في طريقي اليه اختار ساحة العماره في ظل رطب يميل الى الغموض كظل نوع من الأشجار الكثيفة الورق .

وكان اليوم حارا فتحدثنا عن الجو ...

ومن الجو الخارجي قفزنا فجاء الى جو آخر .. جو الحياة والنفس البشرية . والأجيال المتعاقبة التي يحمل كل جيل منها سمة خاصة به . هي علامته التاريخية وربما مفجرته الشخصية .

كنت في هذه اللحظة أثني على مظهره الصحي كتحية له بمناسبة عودته من راحة قصيرة على شاطىء البحر . فبدا لي أنه لا يهتم كثيرا بذلك حين رد وهو يشير بكفه اشارة مختصرة :

ـ انا لا يعنيني المظهر الخارجي . المهم ما بالداخل ..

ولم يبتسم ولم يبد عليه انه يتالم بل ولا انه يحمل عتابا لاحد ولا لشيء .

عجبت .. كانت عبارته اشبه شيء بالتقارير العلمية .. مع انها مجال ـ هي في حد ذاتها ـ للتفجر بالنفس او التذمر من الحياة .

ولم استطع ان استشف ما وراء هذه العبارة ما دام الدكتور قد نسبها الى نفسه . فاخذت اردد شطرها الاخير دون ان اقول شيئا . ونظر الي الدكتور فاحس انني اطلب كلامه بصمتي فاستطرد :

ـ لكنني راض عن حياتي !!

ـ كل الرضا ؟!

ـ اعتقد انني لو عشتها مرة ثانية فلن افعل احسن من ذلك ...

وتركني ابتسم . لم يلمح ابتسامتي . كان ينظر الى دولاب كتب في حجرة مكتبه وعيناه لا تقولان شيئا . وكفه تتحرك بالاشارات المختصرة كانه يخاف ان يصدم شيئا . كان لا يزال يقول :

ـ ..... فلن افعل احسن من ذلك . نعم . لكن شيئا واحدا ربما احزنني ولو انه غير محدد ـ كما احزن بعض الادباء في نهاية عمره فقال : « انني نادم على فرص حنان كان من الممكن ان امنحها للناس » ، مع ان ذلك الاديب لم يكن قاسيا ..

وفي هذه اللحظات القصيرة شعرت ان نبرة الاديب الذي امامي قد تغيرت ...

لم ترتفع درجة صوته ولم تنخفض وهو يقول هذا لكن آلوانا من المعاني علقت كلماته . وجرت في بشرة وجهه حمرة خفيفة فرايت كيف يستطيع قليل الناس صون ما بداخلهم من فرحة او الم ...

لكن كلمة «حنان» علقت بأذني ... وقلبي ... مثل بقية صدى صوت رددته اروقة المسجد . وكان وقتئذ على يميني باب مفتوح وخلف ظهري باب حجرة المكتب فتسلل بصري بنظرة جانبية لأرى ما في الحجرة الأخرى . فرايت السرير الذي ينام عليه مرضاه ساعة (الكشف) وعليه اغطيته التقليدية وامامه كرسي منخفض جدا ليساعد المريض على الصعود . فقلت بيني وبين نفسي « لقد منح مرضاه هنا آلاف الآلاف من فرص الحنان ... لاشك في ذلك » .

لكن الأهم من ذلك هو انني رايت ديوان الشاعر « عمر بن أبي ربيعة » على مقربة مني . وفي جواره حقيبة سوداء من نوع « السرفيس » فحاول خيالي أن يجمع أشتاته ليؤلف صورة متكاملة للدكتور كامل . فاذا بي فجأة أنت الى ناحية بعيدة من الدنيا ... لألمح هناك صورة لأديب آخر . كان همه طوال حياته « بناء شخصيته » قبل أن يكون مهما بوضعه كشاعر مرموق وكان يرى أن الشخصية الانسانية لها عداء نادر يكلف صاحبه كثيرا . وبناء الشخصية عن طريق تناول هذا العداء .. ياكل سنوات العمر . لكن ذلك ضروري ... ضروري أن يعرف الانسان الأدب والعلم والفن ...

وهكذا فعل الشاعر الأمانى « حيته » الذى درس الجيولوجيا والنبات واشياء كثيرة ... لاالشيء الا لبناء الشخصية ..

ونظرت لديوان عمر بن أبي ربيعة وسألت الدكتور كامل

ـ هل ستكتب عنه شيئا ؟

فقال :

ـ سأكتب بعض بحوث كما فعلت مع المتنبي وأبي العلاء .

ـ كنا نحب أشعاره ونحن شبان . وطالما تغنينا بها .

ـ وأنا أحب شعره ولذلك سأخصصه للدراسة العلمية .

كنا قد تكلمنا في أشياء كثيرة قبل أن ألقي اليه بالسؤال التقليدي عن ذكرياته مع قصته «قرية ظالمة» فحدثني عما سماه (بالهرولة العقلية) قاصدا سرعة الانتاج عند بعض الناس . وعما سماه بالطفولة في سن الكبار ... قاصدا المحاكاة الحالية من الذاتية والشخصية عند بعض الذين يكتبون مثل بعض المشاهير . فهو يرى أن الذي يكتب مثل « سارتر » مثلا لأنه فتن به ... يرى أنه لا يقدم شيئا نافعا بالمحاكاة .

وهو يحب الابتكار ويحبيه . ويرى أن جيل الثلاثينيات كان أكثر تولدة وتأنيا وابتكارا من الذين لحقوه بعد ذلك .

فقلت للدكتور كامل :

ـ جيل الثلاثينيات كان بادئا في انشاء ادب مصري وفكر مصري . كان الناس عطاشا للعلم عطاشا للحرية ولتجرد فكرة التجديد . وكلما اشتد الطلب ـ لاأقول قل العرض ـ بل أقول « عندما يكون الطلب ملحا فان أي شيء يقدم يصبح مقنعا » . وفي سنة ١٩٣٩ وقعت الحرب الثانية الطاحنة التي طحنت كثيرا من القيم والآراء ولم تستطع أن تقد شيئا الا (القلق) العام ـ فجيل الاربعينيات تنفس هذا الجو . ومع كل ... فلكل جيل سمة !!

ثم ... والآن ... أريد بعض ذكريات عن قصة « قرية ظالمة » .

ـ فقال الطبيب الأديب :

ـ كان ذلك في صيف سنة ١٩٥٢ . وكنت على الباخرة في طريقي الى سويسرا . وقصة قرية ظالمة هي أول عمل روائي كتبته . كنت الجأ الى «الكابين» وعلى أوراقي ... وكنت اسجل في لحظات الانفعال نتاج ومضاته ... أكتب بلا ترتيب .

ـ بلا ترتيب ؟!

ـ ربما كان الفصل الاول من القصة هو آخر ما كتبت لأني أودعته هـــدف الرواية كلها ... ثم أحدث بعد ذلك ارتب الفصول ... ثم قدمتها للمطبعة سنة ١٩٥٤ .

ـ هذا العمـل الأدبي الذي نال جائزة الدولة كتب بالطريقة التي كتبت بها قصة « ذهب مع الريح » فصول متفرقة ثم رتبت وأنا اذكر قصة « ذهب مع الريح» لشهرتها بصرف النظر عن أخطاء فيها من وجهة النظر الانسانية . لكن قصة « قرية طالمة » أحدث اتجاها انسانيا مسلما به . فأنا أذكر على سبيل المثـال الراى الذي عرضتموه فيها عن الحروب وانسحال الحروب ... والسـبيل المؤدى الى أن التغلب على هذه البروة التي تجعل الانسان يقتل الانسان « جماعات » فقد اقترح أحد ابطال قصة «قرية طالمة» ان يكون ممثل الحـرب هـو اول رجل يمـوت في الحرب !! ... وهذه الفكرة تحمل معنى « واقعيا » يكاد يكون في وضوح الارقام اذا بعد البشر هذه الفكرة وهي أن يموت بطريقة ما من يمثل الحرب !! يموت أول الناس .

ثم هي بعد ذلك تحمل معنى آخر هو أن الذي يمثل الحرب وهو يعلم أنه هو اول من يمـوت فيهـا لابد أن يتخذ احـد موقفين لا ثالث لهما : موقف المقتنع الذي يموت في سبيل الفكرة . أو موقف من يحرص على حياة الناس من اجل حياته هو . والسخرية هي الكاسبة في أي من الموقفين . لكن ...

وسكت قليلا فابتسم الدكتور وهو يسأل بلطف :

ـ لكن ماذا ؟!

ـ انها بلغت درجة من التركيز جعلتني اقرؤها قراءة الدارس . فهـل هـذه هي طبيعة الكاتب اذا كان عالما ؟

فاجاب في تواضع :

ـ كل ماأعلمه هو انني كنت اريد ان اكتب رواية «لانقرأ في القطار» ... عمل يقرأ في تمهل . نشأ عندي من اعتقادي أن الجرائم الكبرى في تاريخ الانسان انما ترتكب بواسـطة «مجموعات» فلا يكون المسـئول فيها واحـدا «فالمجموعة» قادرة على فعل الشر لانتفاء نسبة المسئولية الى واحد معين . كذلك ... اذا تصـورنا ان مسئولية الجريمة وزعت على اشخاص المجموعة التي ارتكبتها ، فانها بلا شك تصبح صغيرة بسبب التفتت . فلا يوجد اذن ما يقلق الضمير . والدليل على ذلك قد يجيء ايضا من تصورنا عكس الموقف ... اقصد من نظرنا الى الوجه الآخر من القضية . فهل من الممكن ان نتصور أن مجموعة كبيرة من الناس تفعل (الخير) بنفس الطريقة التي ترتكب بها (الجريمة) ... اظن ذلك محالا .. وهكذا وقعت جريمة صلب المسيح في قصتي ... وقد حاولت اثناء عرض جريمة الصلب أن اعطي صورة معينة ... صورة صحيحة من وجهة نظر المسلم والمسيحي معا .

على أن الفكرة الاساسية في الرواية هي ما سبق أن تحدثت عنه ... هي أن

الجرائم الكبرى لايمكن أن ترتكب الا بواسطة مجموعة من الناس ، وان المجموعة لاتحس فداحة المسئولية من ارتكاب الجريمة ولذلك فهي تفعلها ببساطة .

ـ على كل حال انا أعتبر هذه القصة دعوة كبرى للحب والسلام وقد رايت فيها نماذج اعجبتني لما اعجبت بالجدر البارع الذي عرض فيه لعلاقة المسيح بمريم المجدلية ... انك تحب الانسان ... انا احس ذلك .

ـ انني افضل أن يبحث الانسان عن أفضل ما في الانسان وأستطيع أن اقول ان هذا هو سلوكي الشخصي .

وسكت قليلا ونظر الى بلورة المكتب ثم رفع رأسه وعاد يقول في ابتسامة هادئة :

ـ انا اكره الفضائل المرهقة ولا أومن بها .

فسألت في شوق :

ـ وما الفضائل المرهقة يادكتور ؟

ـ هي ان أطلب من الناس ما ليس في امكانهم ، كأن أطلب من الصديق تضحيات في سبيل الصداقة .

يجب أن أطلب من الصداقة مستوى معقولا من الفضائل ولو طلبنا البطولة من كل الناس لتغيرت حقيقة « البطل » ولأحد العالم وجها آخر .

قلت :

ـ نعم ، هذا عدل ، وهي نظرة معقولة الى الانسان .

ثم قلت في نفسي : هذا هو سر الراحة التي يحملها مؤلف قصة «قرية ظالمة» سر الهدوء النفسي والحب للناس ، انه لا يحمل عنانا ... فكيف يحمل كرها انه يحاول أن يرى في الانسان احسن ما فيه ثم هو بعد ذلك لا يطلب منه « فضائل مرهقة » ، واحسست أقول في نفسي : هل هذا اثر من آثار التفكير العلمي ؟ لكنني وجدت نفسي أرفع صوتي سائلا :

ـ هل من الممكن أن تحدثنا عن العلاقة بين العلم والادب بصفتك قد أخذت من الاثنين بنصيب كبير ؟

فقال :

ـ العلم في العصر الحاضر على الخصوص قد وسع آفاق الأدب الى حد كبير ، اما ايام كان العلم مقصورا على الطبيعة البحتة فان فائدة الأدب منه لم تكن كبيرة ، وقد اصبح العلم اليوم متصلا بكل شيء حتى النفس الانسانية والسلوك الانساني ، واذا كانت مادة الأدب هي النفس والسلوك فلا بد أن يستفيد الأديب من كلمة العلم في النفس والسلوك وبعد مرحلة الاستفادة يصبح الأديب عالم نفس أكبر من عالم النفس ، وتمسي كلمته أكثر ذيوعا وخلودا بالنماذج الحية الحقيقية التي يصورها .

وأنت معي في أن الخيال وحده لا يمكن ان يكون زاد الأديب ولا سلاحه ولا متاع سفره ، فالعلم يكسب الخيال أجنحة جديدة يحمله بالتالي أكثر قدرة على التحليق والارتفاع وجوب الآفاق والكشف عن البدائع .

ـ هذا عظيم . لكن ما رايك وأنت عالم في قول الذين يطلبون من كاتب القصة مثلا ... أن يلاحق بانتاجه خطوات العلم . فهناك ناس يقولون : نحن في عصر الفضاء وعصر الذرة . فكيف لانكون عندما نقصص تصور هذه الاحداث . كيف نظل نكتب عن الانسان (في الارض) في الوقت الذي يجوب فيها الفضاء في طريقه الى الكواكب الأخرى ... كيف نكتب عن الانسان (ذي الوزن) وندع الانسان وهو في حالة (فقدان الوزن) ؟! فهل ترى أن خطوات الأدب لابد أن تلاحق خطوات العلم ... أو بعبارة أخرى هل يجب ان يسكن الأديب نفس المنطقة التي يسكنها العالم في الارض او في السماء ؟

فرد الدكتور كامل وكأنه يدفعني عن السقوط في هوة

ـ العلم ليس الاختراع ولا المخترعات ولا الفضاء ولا الذرة . العلم هو أسلوب التفكير المؤدي الى كل هذا ... العلم ليس (الحقيقة) بل ان العلم حين يصنع حقائق تصير في حكم المنتهى ... أهم مافي العلم ليس هو (ما تعلم) بل هو (الطريقة) التي توصلك الى (ما تعلم) ... العلم الحي هو التفكير العلمي وليس المعلومات . والذي يجب أن تتسلح به الأديب هو (التفكير العلمي) ومطلوب منه أيضا أن يكون على معرفة بمبادئ العلم فيكون عنده فكرة عن مبادئه لاعن حقائقه .

ـ كما قالوا ان الذرة هي الطريق الى الحديقة وليست الحديقة ، فان العلم هو الطريق الى العلم وليس العلومات ...

ـ نعم ... وقد عشنا زمنا كانوا يقولون فيه ... كيف نقول الشعر في الابل ووصفها ونحن في عصر الطيران ؟

وهذا الكلام عجيب . فليس المطلوب أن نصف الطائرة وفقط ، وينتهي الأمر . فقد نصف الطائرة بعقلية من لايعرف الا الابل . لكن المهم هو أن نعيش بعقلية عصر الطيران وعند ذلك سنصف الابل وصفا جديدا غير الوصف الذي سجله شعراء البادية والجاهليون .

وهذا الكلام يجرني لفكرة أخرى . هي فكرة المادة والروح . فانا لا يعجبني هذا القول « معنويات الشرق ومادية الغرب » لانه لاتوجد روحانية أقوى من روحانية البحث عن الحقيقة ... روحانية العلم .

والمثابرة على الوصول الى أعماق الطبيعة يصنع الايمان والاخلاص والصدق بكمية كبيرة ، ولذلك فانني أرى في التقسيم خطأ منطقيا ، فمعنويات وماديات ، ليس تقسيما لان الروحانية نتيجة مؤكدة للبحث العلمي .

سألت :

ـ بعض الباحثين يصابون بالالحاد وبعض الباحثين يكسبون ايمانا عميقا . اليس هذا صحيحا ؟

فقال :

ـ يجب أن نفرق بين المتبوع والتابع . فالمتبوع عالم لابد أن يكون في أرقى درجة من الصدق والايمان . والتابع ليس الا (محضرا) قد يجور عليه ما يصيب الملحدين .

وسكت الدكتور كامل وحملت أنظر اليه . كان قبل ثانية يتكلم بحماسة لكن الهدوء العطري عاد فكسا وجهه . ولم يكن على ملامحه آثار جهد كأنه يتحدث عن الأسعار لا عن الافكار وعندئذ ألقيت اليه بسؤال لم يخطر على باله . قلت :

ـ انك لاتدري أي قدر من الهدية ، يحيط بك الى درجة انني ـ واسمح لي ـ ما كنت اصدق انك تحمل مثل هذه الرقة . لقد ذكرتني بما قاله بعضهم عن شعر ابي تمام حين وصفوه بالثلج المذب الذي تحيطه بعض الصخور . لكن كل من يختار صباح الصخر سيبتسم الصخر وهو يبتهل من الماء . كذلك أنت . فهل لهذه الهدية الدائمة أصل في طفولتك التي لانعرف عنها شيئا ؟

أنت أديب تكره الأضواء بدليل انك متألم من هذا الثناء الصغير . وهذه طبيعة . طبيعة الذين يعملون في صمت ليبدعوا شخصيتهم أولا وقبل كل شيء كما فعل (جده) وهانذا أراك تبحث في شعر ابن أبي ربيعة وقد بحثت في المتنبي وأبي العلاء . وكتبت الرواية ولك في النقد الأدبي خطرات جديدة . وفي تعريف المصطلحات العلمية أفكار وآراء . وبعد ذلك فأنت لاتبحث عن الأضواء . اذن فحدثني عن طفولتك .

لكن الدكتور كامل لم يخرج عن طبيعته . فقد كانت اجاباته مختصرة واشارات كفه قصيرة المدى كأنه يخاف أن يصدم شيئا . وأخذ يحدثني عن سنوات عمره الأولى وكأنه يتحدث عن شخص لايعرفه .

ـ لم اشعر بالطفولة ولا حتى بالشباب . كنت دائما أجد نفسي مع ناس اكبر مني وأعلم مني .

وابتسم . واستطرد :

وهانذا في الستين لاأحب أن أعاشر الا من هم في الثمانين .

فتذكرت جده لأمه لطفي السيد ولطه حسين .

ثم قلت له غير مجامل :

ـ ما اظن انك في الستين . ان هذا لايبدو واضحا . انك في الاربعين وتفكيرك في عمر الشباب .

ـ على كل حال كل ما أحب أن أذكره أن من حولي كانوا يرهقونني بالدراسة كانوا يريدون أن يحملوا مني شيئا هاما . وهذا هو سر الجدية التي تقول عنها .

ووجدت نفسي في بيت مليء بالكتب لان والدي كان مدرس لغة عربية . واذكر انني قرأت (سيرة ابن هشام) وأنا في سن صغيرة ولا أعي شيئا مما أقرأ .

وقد أثر هذا في سلوكي اثناء الكتابة . فانا اكتب على طبيعتي وأحذف ثلث ماكتبت ... اميل للاختصار لا للاضافة وللايجاز لا للتطويل او الاطناب .

واستطرد ياسما

ولست أفعل فعل المتنبي الذي ما حذف بيتا قط بعد كتابته وقد عزوت هذا الى بخله قبل كل شيء .

عندئذ نظرت في ساعتي فرأيت ان زمنا طويلا قد مضى . ودخل علينا الممرض الاسمر ومر بجانبنا وخرج وتناهت الى أصوات من صالة العيادة فاحسست أن طلاب (الدلم) قد حضروا ... المرضى الذين يطلبون الشفاء ـ وكان الباب المفتوح الى يميني لايزال مفتوحا والسرير في وسط الحجرة الاخرى في مكانه عليه الخطيئة التقليدية وأمامه الكرسي المنخفض وهو بانتظار المريض (نمرة واحد) ...

فصافحت الدكتور محمد كامل حسين وخرجت بعد ان ألقيت نظرة على ديوان عمر بن ابي ربيعه . وعندما كنت اجتاز الصاله كانت الانوار مضاءة وعيون الفتاة تنظر الى ما كان يعنيها اكثر من ان تلقي (الطبيب) مثلما دخلت أنا ولا يعنيني الا ان القي (الاديب) .

وكان الظل الرطب في فناء العمارة قد تحول الى عتمة ثم يبددها بعد نور مصباح . لكنني كنت ارى طريقي بوضوح وكنت احس ببهجة نفسية (على أساس علمي) سرها أنني اكتشفت ... اكتشفت رقة الاديب خلف جدية العالم .